13

2013 08 21

عادت بعد يومين اثنين وحسب، بالفعل.

دخلتْ مكتبي وحيتني بابتسامة عذبة أخرى، فكرت: لا غرابة في أن تكون مثار إعجاب الناخبين، لا أعرف كيف هي في حياتها الخاصة، غير أن بوسعها حقًّا أن تكون ساحرة وجذابة عندما ترغب في أن تكون.

قالت: صباح الخير دكتورة! كما يمكنك أن تري قررت اختبار الأمر، أقله لبعض الوقت، ولكن إياك أن تتفاجئي إذا ما تركت بسرعة. مع أنني تابعت عددًا من دروس علم النفس بويزلي، فإن سيغموند فرويد ليس واحدًا من أبطالي.

وما الذي لا يعجبك فيه؟

هراؤه كله عن الغيرة القضيبية كلام فارغ - قالت بصوت تفوح منه رائحة اليقين - لم يسبق لي أن رغبت في امتلاك قضيب، ولو كان لدي، فماذا أفعل به؟ هل تصدقين أنت كل ذلك الهذر؟ إذا كنتِ تفعلين، فقد أكون في المكان الخطأ.

ابتسمت: الدراسات النسوية قطعت أشواطًا منذ فرويد.

obeikandi.com

حسنًا، يا له من انفراج! ربما سينشغل المحللون النفسيون آخر المطاف، غير أن عليكم أن تثبتوا ذلك لي قبل أن أمنحكم نجمة ذهبية، ما الذي تريدين أن تعرفيه عني يا دكتورة؟

كل ما تريدين أن تبوحي به لي.

أنت عون كبير، أستطيع أن أرى! صمتت لحظة، ثم قالت: أستطيع أن أبدأ من ولادتي؛ أنا إحدى أوائل زمن الإكثار من الأولاد، ولدت في السادس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1947م، بعد الحرب العالمية الثانية بعامين. توقفت ثم تابعت: أجدني ميالة إلى إخبارك عن أبي، هيو رودهام الذي ربما كان الشخص الأهم في حياتي. هل هذا يناسبك يا دكتورة؟

قلت: يقينًا، تكلمي عمن وعما تريدين. لم أستطع مقاومة صوغ فرضية جديدة: أبوها كان أهم في حياتها منها هي، الأمر الذي كشف لي – سلفًا – أشياء كثيرة عنها.

هوى كتفاها، وإن بقي وجهها خاليًا من العاطفة؛ انتظرت بصبر إلى أن لملمت نفسها، كانت قد أفلتت عاطفة فعلية وما لبثت – على ما ظننت – أن باتت نادمة على ما فعلته.

انسحبت إلى أمور عملية؛ بدأت تقول: إن أباها كان ابن اثنين من المهاجرين القادمين من ويلز، وما أخبرتني به عنه بعد ذلك سردته برتابة أخافتني؛ وصفت رجلًا خشنًا، متجهم الوجه، دأب على تعذيب أولاده بالسخرية القاسية المشحونة بالاحتقار وببخل خانق، وكان يجبر الصغار على متابعة إذلال أمهم وإساءة معاملتها باطراد. قالت إنه كان يضرب ابنيه، غير أنها لم تقل ما إذا كانت هي أيضًا قد ضُربت. تساءلت: هل كانت تحميه، أم أنها كانت مُفَضَّلته فبقيت دون مساس، ببساطة؟

obeikandl.com

بحسب روايتها ومهما كانت مزاياه – التي أظن أنها كانت كثيرة – فقد كان أبًا رهيبًا وقاسيًا ومُذلًّا لدرجة لا تجعلني أصدق أن شخصية هيلاري يمكن أن تكون كما هي عليها الآن. كيف نشأت لتصبح الشخص الذي أصبحته مع أب دنيء وسيئ المعاملة إلى هذا الحد أمر يفوق قدرتي على الإدراك. في هذه المرحلة المبكرة من رحلتنا أظن أننا ملزمون بالتعبير عن الشكر لما ورثته وربما لأمها.

قالت هيلاري: قضيت جزءًا كبيرًا من وقتي وأنا أحاول خطب ود أبي، نادرًا ما كنت أنجح، كان أحد الأمثلة الأنموذجية التي أثرت في درجاتي في المدرسة؛ دائمًا كنت طالبة عظيمة، وعادة كنت أعود بورقة علامات ملأى بأحرف (أ). ذات يوم عرضت عليه ورقة علامات فيها حرف (ب) واحد وباقي العلامات (أ). انتظرت بصبر، أصلِّي بصمت راجية سماع كلمة إطراء. جاء رده: «كيف تحصلين على (ب) واحدة؟». في الشهر التالي عرضت عليه ورقة علامات ليس فيها سوى (أ). كان رد فعله: «يا لها من مدرسة سهلة»!

ومهما كانت إجادة هيلاري، فإن أباها ظل يرفع مستوى الحاجز. يا لها من طفلة محبطة، دائبة بيأس على محاولة إسعاد أبيها الرافض لأن يرضى! يمكنني أن أرى سبب توقها لأن تُنتخب رئيسة للجمهورية؛ بلاد كاملة ملأى بالناس المقترعين لها قد تخفف من وطأة ذكريات الإخفاق الدائم في إسعاد رجل واحد كانت تضع رأيه فوق كل شيء.

أحد الجيران قال مرة عن هيو رودهام: «كان أقسى من عرنوس ذرة، وأشنع من الفظاظة». لم يكن مربيًّا، تاركًا تلك الوظيفة الأبوية لزوجه الألطف دوروثي التي كان متكرر الاستهزاء بذكائها ومواهبها، كان رجلًا فجًّا غير مصقول. (مثل أبيها تكون هيلاري سيدة، وتستطيع أن تبدو أيضًا مفرطة المباشرة والجفاف أحيانًا). حين كانت دوروثي تهدد بترك هيو بسبب معاملته السيئة

لهـا وللأطفال، كثيرًا مـا كان تعليقُه يتمثل بعبارة: «احذري من اصطدام قبضة الباب بمؤخرتك وأنت خارجة» بمعنى: أغلقي الباب خلفك! كما يقال بالعربية.

يا لها من طريقة تعامل زوج عامرة بالحب! قلت لنفسـي: لن أكون مسـتعدة للعيش مـع مثل هـذا الرجل مدة عشـر دقائـق! أحيانًـا كان الأطفـال يضحكون مـن التعليـق، قالـت هيلاري، ولكن ليس في الأوقـات كلها. مؤكد أنهم يشـعرون بالقسـوة الكامنة وراء التعليق، وإن بقوا عازفين عن الاعتراف بذلك علنًا، حتى الآن.

على العشاء كان هيو يستغرق في إطلاق مونولوجات طويلة عن الحياة رافضًا بقسـوة أي مقاطعـة أو اعتراض، جُل أفراد العائلة كانـوا يكظمون غيظهم وهم يتظاهرون بالإصغاء؛ وحدها هيلاري كانت تجادل إذا رأت أنه على خطأ. يبدو أنهـا الوحيـدة التي كان يُسـمح لها أن تختلف مع أبيهـا دون أن تعاني أي عواقب وخيمـة، أمـا إذا حاولت دوروثي أن تنطق برأي مخالف، فكانت تتعرض لاحتقار زوجها وسخريته ووصمها بعبارة بأبشع العبارات.

ومهمـا بلـغ اسـتفزاز هيـو وإسـاءته لزوجـه، فإن الزوجـين – كمـا أوضحتْ هيـلاري نجحا في إضفاء إحساس العائلة والحب المتبـادل على الأطفال، الأمر الذي حدد جزءًا كبيرًا من حياتها المستقبلية. لو نظرت إلى علاقتهما من منطلق تحليلي، لتعين علي أن أنعتها بعلاقة سادومازوخية، كانت تعني بالنسبة إلى هيو (كل رجل يقتـل الشـيء الذي يحبه) بحسـب تعبير أوسـكار وايلـد. تصورت أن أنمـوذج حيـاة أبـوي هيلاري الزوجيـة هو الذي يجـب أن يكون متيحًـا لهيلاري فرصة تحمل خيانات زوجها.

مـا من أحد سـيئ مئة بالمئة، حتى هتلـر كان يحب كلبه. وذريعة هيو رودهام لسـوء معاملة أسـرته – كما قالت هيلاري – تمثلت بإيمانه بقيم عتيقة الطراز كانـت سـائدة منتصف القرن – بأن من شـأن المثابرة والانضبـاط، والتعليم في البيت، وفي المدرسة، وفي الكنيسة أن تتمخض عن تحقق حلم أي طفل.

obeikandl.com

قيل لهيلاري: إن عليها أن تستخدم عقلها كي تمتلك بعض التحكم في حياتها وهي راشدة؛ لذا تعين عليها – كما على أطفال عائلة رودهام الآخرين – أن تتفوق في المدرسة. تعليق هيورودهام المفضل كان: (خائب في المدرسة، خائب في البيت). وعلى الرغم من بشاعة شخصية الرجل، فإن الفلسفة الرودهامية حققت مكاسب غير عادية لهيلاري وإن لم تفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى أخويها. كان صاحب فضل في تلقينها أن من شأن فرص النجاح ألا تكون محدودة بجنسها، أقله على هذا الصعيد، كان هيو متقدمًا على عصره.

حاولتُ انتهاز فرصة، وإطلاق بالون اختبار؛ قلت: أنت تحيرينني يا هيلاري؛ تقولين أكثر الأشياء إثارة للعواطف عن أبيك، وتبقين رغم ذلك كاملة الهدوء، كيف تستطيعين أن تظهري على هذه الدرجة من عدم التأثر؟!

أجابت: لقد عشت التجربة طولًا وعرضًا مرات كثيرة حتى أدمنتها. راودتني الشكوك غير أني رأيت أن من الأفضل إرجاء المسألة إلى وقت آخر، مفترضة احتمال وجود مثل ذلك الوقت لاحقًا. تركت لدي انطباعًا أنها امرأة غاضبة – ليس الوقت كله، بل جله – دائبة قدر استطاعتها على إخفاء ذلك. ومما سبق لي أن سمعته فإن لديها أشياء كثيرة جديرة بالغضب؛ إلا أن ما هو أسوأ كان على الطريق.

كان أبي ضابط صف أول في البحرية إبان الحرب العالمية الثانية، كان يدرب مجندي برنامج (جينه توني) لجيش الولايات المتحدة، وهو نظام صارم ومتطلب جسديًا قائم على تقنيات الملاكم الدفاعية الشهيرة. وحين عاد أبي إلى البيت كان قد افتقد البحرية؛ لأنه كان يعاملنا كما لو كنا امتدادًا للخدمة؛ كان يجلس متكئًا في غرفة المعيشة ليلًا نهارًا وهو يصرخ مطلقًا الأوامر الموجهة إلينا، ساخرًا منا، مستهينًا بإنجازاتنا، مستخفًا بنجاحاتنا، دائبًا باطراد على

رفع مستوى المعايير بالنسبة إلينا، وعاكفًا على ما كان يطلق عليه اسم (بناء الشخصية). لم أكف قط عن محاولة إرضائه.

كان يهدف إلى التحكم المطلق في أسرته؛ ما إن كان أحدنا يتحداه حتى كان يصر بلا رحمة على الإذعان لأوامره؛ إذا نسي أحدنا سهوًا – مثلًا – إغلاق ماسورة معجون الأسنان كان يرمي الغطاء عبر النافذة ويجبرنا على تحمل عناء استعادته، حتى لو كانت الأرض مغطاة بالجليد أو الثلج. وبصرف النظر عن مدى برودة ليالي الشتاء الشيكاغوي، فإن أبي البخيل كان يصر على إطفاء أجهزة التدفئة حتى الصباح.

اعترتني رجفة حين تصورت الأشياء الأخرى التي يمكن لهذه المرأة الفاتنة أن تكون قد عاشتها أيام طفولتها؛ في مناسبات قساوة والدها من الصعب تصور عزوف حتى البنت عن حمل مشاعر الاستياء منه، مع أن أحدًا لم يسمعها – بحسب علمي – متذمرة على الملأ، غير أنني – وكما قلت – لم أكن قد سمعت شيئًا بعد.

كنت مجنونة بأبي، بكل ما فيه حتى بخله، وكنت أراه وسيمًا شبيهًا بأي نجم سينمائي. ذات مرة، حين كنت في نحو الخامسة من العمر وكنت مغرمة به إلى حد الجنون، قلت له: هل ستتزوجني يا بابا؟ صُدمتُ إذ قوبل عرضي بضربة عنيفة على قفاي، ركضت باكية إلى المطبخ حيث تولت أمي طمأنتي وإرضائي بقطعة حلوى.

يا له من رجل رهيب! قلت لنفسي: ما من طفلة صغيرة عادية إلا وتعشق أباها وتكن له – كما فعلت هيلاري – رغبات مماثلة؛ إنها عقدة أوديب الشهيرة، أو عقدة ألكترا، بالنسبة إلى الفتيات. كم كان هيو رودهام جاهلًا! وكم كان قاسيًّا! لا غرابة أن تكون هيلاري قد عانت دائمًا مع الرجال.

o b e i k a n d l . c o m

قلت لها: تلك كانت حماقة منه يا هيلاري وخطأ جسيمًا؛ لم تكوني إلا معبرة بصوت مرتفع عما تشعر به أي طفلة إزاء أبيها.

غامت عينا هيلاري لحظات قصيرة ولكنها لم تبد أي رد فعل على ملاحظاتي. بدت مخترقة إياها، بالفعل. (دخلت من أذن وخرجت من الثانية كما يقال).

سألتها بإلحاح قوي: ألم يغضبك رد الفعل هذا؟

أجابت: لا، رأيت أنني أستحق الضربة.

هززت رأسي بحزن وفكرت، يكفي ما قيل عن ذلك الموضوع، أقله راهنًا.

كما لو كانت تحدس بأفكاري قالت: بعض الناس يغدون أكثر دماثة مع تقدمهم في السن، أما أبي فلم يكن منهم؛ فمع تقدمه في السن أصبحت دناءته أكثر وضوحًا باطراد. لم تكن لديه سوى القليل من الاهتمامات باستثناء قهر أسرته، وأخذت غطرسته ومناكداته تتعاظم.

بنظر هيلاري، رجال عائلة رودهام جميعهم كانوا مكتئبين، لم أفاجأ؛ فشقيق أبيها الأصغر (راسل) كان طبيبًا حاول شنق نفسه في سقيفة بيته العليا، أنزله هيو من المشنقة، منقذًا حياته، بعد ذلك عمل راسل ساقيًا في حانة، وانزلق إلى الإدمان على الكحول فغرق في بئر أعمق من الكآبة حتى قضى محترقًا في نار تسببت بها لفافة تبغ مشتعلة. قالت هيلاري: إنها تعاطفت بعمق مع حزن أبيها على مصير أخيه، مع أنني لم أكن لأعرف ذلك من نبرة صوتها المسطحة وغياب التعبير عن وجهها؛ بدت دائمة الحب لأبيها والتقمص العاطفي لمشكلاته، رغم سوء معاملته للعائلة. كانت ابنة أفضل من أن يستحقها.

أما شقيق هيو الأكبر (ويلارد) فقضى ثلاث عشرة سنة متوليًّا مهمة رعاية أبيه بعد موت أمهم، وحين رحل الأب في السادسة والثمانين من العمر، كان

obeikandl.com

ويلارد قد بات غارقًا في بحر من اليأس، ولم يلبث أن التحق بركب أبيه إلى القبر بعد خمسة أسابيع. شقيق هيلاري الأصغر (طوني) مات من الوحدة.

ومع رحيل أبويه وأخويه، عاش هيو مدة طويلة من الكآبة، وضاعف من انعزاله عن العالم أكثر فأكثر، ومع أنه لم يتجاوز الخامسة والخمسين من العمر، فإنه استقال من عمله وغاص في أعماق نفسه.

بالاستناد إلى تاريخ ذكور عائلة رودهام، ليس غريبًا أن يكون شقيقا هيلاري قد قضيا الكهولة غارقين في بحر من السوداوية المتشائمة.

بعد بلوغ سن الرشد، حاول أولاد هيو الثلاثة: هيلاري، طوني، وهيو، جميعًا أن يقنعوا أنفسهم بأن معايير والدهم الصارمة في تربية النشء كانت جزءًا من خطة كبرى هادفة إلى تمكين أولاده من أن يصبحوا مقاتلين أشداء، قادرين على المنافسة؛ لـ (شد أزرهم)، إضافة إلى غرس عناصر من (الواقعية) في نمط حياتهم المميز، من الصعب تصور أنهم كانوا يفسرون تصرفاته بهذه الطريقة الكريمة؛ لأنهم كانوا – في الحقيقة – أولادًا أُسيئت معاملتهم، ولعل الاحتمال الأقوى أنهم وظفوا آلية الإنكار الدفاعية، حيث لا يرى المرء ما يتمنى أن يكون غير صحيح.

قدَّرت أن الآلية نفسها ساعدت هيلاري على عبور سنوات خيانة زوجها، وكما يعرف الجميع أن الزواج الكلنتوني إبان رئاسة بل للجمهورية، نجا من سلسلة من الفضائح ولا سيما قصة مونيكا لوينسكي، فهبت هيلاري بقوة وأنكرت المزاعم، مؤكدة على شاشة الـ (إن بي سي) في برنامج مشهد اليوم أنها لم تكن إلا من فبركات (مؤامرة يمينية واسعة) هادفة إلى إبعاد كلينتون عن البيت الأبيض.

مثير للسخرية! كنت قد قلت لنفسي آنذاك، وتساءلت عما كانت ستقوله بوصفها سياسية ذكية وحاذقة فيما لو تعرضت لإلقاء القبض عليها وهي

مصـرة علـى مثل هـذا الإنكار. آنذاك شـعرت بصدق أن هيـلاري كلنتون كانت تريد من أعماق القلب أن تنزع القشـرة؛ أما الآن فأنا مصممة على مسـاعدتها في الاهتداء إلى اللب، بصرف النظر عن مدى صعوبة البحث.

قالـت هيـلاري: أبي كان عملاقًا، قامته بطول سـت أقـدام وبوصتين، كتفان عريضتـان، صوت خشـن، مهيمن نفسـيًّا كما كان جسـديًّا؛ كنـا نصاب بالرعب حـين يغضـب، والجميع يعرفون أن حياة أمي معه كانت مؤلمة الإذلال؛ حتى أنا – ابنته المحبة – كنت أستشـيط غيظًا أحيانًا إزاء سـلوكه البغيض وبخله الشديد. مـرات كثـيرة دامـت تعنيفاتـه، وحمـلات شـتائمه، سـاعات طويلـة، بادئة وقت العشـاء، متواصلة إلى سـاعة متأخرة من السـهرة، ومسـتمرة ساعات أخرى في غرفة النوم. كنت أضع يدي على أذني وأغوص تحت الأغطية تجنبًا لذلك كله.

لم تكن دوروثي المتلقية الوحيدة لحمم غضب زوجها وعنفه، قالت هيلاري: أحيانًـا كان يفقد أعصابه وهو يقوم بتربيتنا، صارخًا بصوت أعلى ومسـتخدمًا مزيـدًا من العقاب الجسـدي ولاسـيما مع أخويَّ، أكثر مما كنـت أراه منصفًا أو ضروريًّا؛ غير أني لم أشك قط أنه كان يحبني، حتى في أوقات الغضب. وأضافت مبتسمة: لم يكن أبي يوفر العصا.

تساءلت بيني وبين نفسي بصمت: لماذا تبتسمين يا هيلاري؟ يجب أن تكوني شديدة الاستياء في مكان ما من أعماقك إزاء هذا الظلم والاستبداد.

لم تبح هيلاري قط بمدى قسوة ضرب هيو لأولاده، بالأماكن التي يستهدفها بالضرب من الجسد، أو بما إذا كانت هي أيضًا ممن تلقوا ضرباته، بما يبقيني جاهلة بالشعور الذي كان يراودها إبان (حملات التأديب).

فلسفة هيو رودهام في تدريب الأولاد، تلك الفلسفة القائمة على (عدم توفير العصا) لم تكن ناجحة كليًّا، أقله بالنسـبة إلى أخوي هيلاري طوني وهيو الابن اللذيـن دفعهمـا رودهام بلا رحمة مجبرًا إياهمـا على أن يحذوا حذوه كي يكونا

ناجحين مثله. كان طوني أفضل تكيفًا من هيو الابن الذي لم يتخل قط عن حلمه المستحيل بكسب ود أبيه. حاول أن يحذو حذو أبيه ولعب كرة القدم، وذهب إلى ولاية بنسلفانيا ولكن أباه كان يضاعف من إبعاده عنه كلما زاد هو من تكثيف محاولات استرضائه. فرد من العائلة تمنى أن يبقى مغفلًا قال في إحدى المرات: إن هيو كان أقسى مع هيو الابن لأنه كان ابنه الذكر الأول.

كان طوني رودهام شديد الاختلاف عن أخيه الأكبر؛ لم يبد مهتمًّا برأي أبيه فيه، ولم يفعل إلا ما يحلو له؛ لذا فاز بقدر كبير من تقدير أبيه في سن مبكرة. من الواضح أن هيو رودهام كان يحترم هيلاري وطوني أكثر من هيو الابن؛ لأنهما كانا يجرؤان على التصدي له. نجحت هيلاري في النجاة من عواقب العديد من المخالفات الثانوية للقواعد العائلية، حتى حين كانت هي نفسها مهندسة المشكلة فإن الصبيين كانا هما اللذين يُعاقبان.

ومما قاله طوني: «كانت فتاة البابا، ومن المستحيل أن تقع في خطأ».

بالرغم من عيوبه كلها، ومع أنه كان سينفي الأمر بازدراء، فإن هيو رودهام كان من أنصار الحركة النسوية بطريقة ما؛ فهيو هذا هو الذي لقن هيلاري أنها جيدة وأفضل من أي ذكر، بمن في ذلك شقيقاها، وصدقته هيلاري، إذ قالت: في المدرسة الثانوية تسربت إحدى أذكى صديقاتي من الدورات المكثفة؛ لأن صديقها لم يكن مسجلًا في هذه الدورات، وصديقة أخرى لم ترغب في إعلان علاماتها؛ لأنها أيقنت أنها حاصلة على علامات أعلى من تلك التي حصل عليها الشاب الذي كانت تواعده. هاتان الفتاتان كانتا قد التقطتا الإشارات الثقافية الدقيقة وشبه الدقيقة المحرضة لهما على الامتثال للصور النمطية، وصولًا إلى اختزال إنجازاتهما تجنبًا للتفوق على الشباب الذكور من حولهم. أضافت هيلاري: يعود الفضل لأبي في أنني لم أكن لأتصور التخلي عن الدراسة الجامعية أو عن مهنة ما طلبًا للزواج، كما كانت صديقاتي يفعلن.

obeikandi.com

حين كان طوني في التاسعة من العمر، أصيب بداء الروماتيزم الذي أجبره على البقاء في البيت وتناول الطعام وهو في الفراش مدة سنة كاملة. مرَّضته أمنا بمحبة ورعاية إلى أن تماثل لما يكفي من التعافي ليعود إلى المدرسة، تعامل أمي مع طوني كان أنموذجيًّا بالنسبة إلى سلوكها وهي التي كان الشابان يلوذان بها عند التعرض لأي صعوبات مع أبينا؛ كانت تعد قلب البيت بنظرنا جميعًا، واضطلعت بدور الحكم كلما تفاقم اشتباك لفظي أو جسدي بين أخويَّ وأبي.

ترعرعت بين دفع وشد قيم أبَوَي، وكانت معتقداتي السياسية الخاصة عاكسة لنمطي تفكيرهما كليهما، قالت هيلاري: والفجوة الجنسية (الجندرية) التي كان يكثر الحديث عنها آنذاك في سياسة الولايات المتحدة، كانت واضحة تمامًا في الأسر الشبيهة بأسرتي. أمي أساسًا ديمقراطية، رغم أنها أبقت الأمر مكبوتًا في بارك ريدج الخاضعة للهيمنة الجمهورية. أما أبي فكان جمهوريًّا محافظًا فولاذي الأضلاع، من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وفخورًا بذلك، شديد البخل بالنسبة إلى المال، لم يؤمن بالاقتراض أو الإفادة من الاعتمادات والقروض، وظل يدير عمله من منطلق الدفع المسبق الصارم. إيديولوجيته كانت نابعة من إيمانه بالاعتماد على الذات والمبادرة الشخصية.

أخشى أن أكون مثله على الصعيد الأخير، تابعت وهي تبدو محرجة: أعيد حبات الزيتون غير المستهلكة إلى الجرة، كما أعيد قطع الجبن الفائضة إلى البراد مهما كانت صغيرة. أخمن أنه غرس فيَّ الخوف من التعرض للوصول إلى مأوى الفقراء.

الوقت كله ظلت هيلاري تحدثني عن أبيها، وأنا واصلت الاندهاش من كلامها بمثل هذه النبرة المسطحة بهذا القدر الضئيل من التعبير على وجهها، سبق لي أن أصغيت إلى العديد من مثل هذه القصص على مرِّ السنين، وأعرف أن المرضى جميعهم؛ ذكورًا وإناثًا، يتعرضون عمليًّا للانهيار وذرف الدموع حين

يتحدثون عن مثل هذه الأمور، أما هيلاري فهي مختلفة؛ بدت كما لو كانت تتلو قائمة موجودات إحدى البقاليات.

هل كانت تتصرف بتلك الطريقة أمام أبيها أيضًا؟ في مكان ما، بطريقة معينة، اهتدت هيلاري الصغيرة إلى الجرأة اللازمة للوقوف في وجهه وإخفاء رعبها. أظن أن هذا أدى إلى صقلها وتصلب عودها بما أفضى إلى أن تكون هيلاري الراشدة قادرة على تحدي زوجها، وحصَّنَتّها ضد فساد الصراعات السياسية.

ذات مرة قالت إليانور روزفلت*: إن المرء بحاجة إلى جلد وحيد القرن في السياسة. علقت هيلاري: «كانت إليانور تعرف ما تتحدث عنه، تعلمت كيف تتلقى الانتقاد بجدية، ولكن ليس على نحو شخصي. من المعروف أن السيدة روزفلت قالت: ما من أحد يستطيع أن يشعرك بالدونية ما لم توافق أنت. تربح يومًا، تخسر آخر، لا تأخذ الأمر على نحو شخصي؛ تنهض كل يوم وتتابع المسير».

يا لها من امرأة حكيمة هذه الهيلاري! قلت في نفسي، أقله على ذلك الصعيد.

من الواضح أنها كانت حكيمة سلفًا وهي طفلة، وأدركت أن نقد أبيها العنيف لم يكن شخصيًّا بل مجرد جزء من شخصيته. كان الأب هي وسيلة لتصليب جلد هيلاري إلى المستوى الضروري ما ساعدها على النجاة من الحجارة والسهام التي رُميت بها إبان حياتها السياسية والمهنية. لولا (مساهمته) لما كانت قادرة ربما على متابعة حياتها في البيت الأبيض. كم منا يمتلكون قوة إليانور روزفلت أو هيلاري كلنتون ويستطيعون الخروج من مثل تلك المحن القاتلة بمثل هذا

* زوجة الرئيس الثاني والثلاثن للولايات المتحدة الأمريكية فرانكلين روزفلت، (1884 ـ 1962م).

النجاح؟ شخصيًّا لا أدعي ذلك. يكفيني تحمل انتقاد المرضى الذين أشجعهم على البوح.

تمثل جزء من مشكلة هيو رودهام بأنه كان منذ شبابه إنسانًا خائبًا، محبطًا؛ أراد أن يكون لاعب حلقة أولى في ولاية بَنْ، وأبلغ الجميع بأنه كوفئ بزمالة كرة قدم جامعية. للأسف كان يكذب؛ فالسجلات تبين أنه لم تكن هناك أي زمالات كرة قدم ممنوحة في تلك الأعوام (1931–1935م) بولاية بنسلفانيا «كان ممثلًا تافهًا»، علق أحد أفراد العائلة ذات مرة.

كان والد هيو رودهام عامل نول حياكة في مصانع سكرانتون الكبرى، وبدلًا من أن يصبح لاعب كرة قدم شهيرًا حذا الابن الساخط حذو أبيه في سن مبكرة؛ أما أمه حنه جونز رودهام فعرفت بالعناد والفظاظة مثل ابنها، وكانت مسيطرة على حياة العائلة.

غير أن هيو كان متحليًا بمهارة عظيمة واحدة بارزة: كان بائعًا جوالًا ناجحًا جدًّا؛ «كان الوالد أعظم بائع في العالم»، قال طوني رودهام ذات مرة «لم أره قط خاسرًا في صفقة». بوصفه حرفيًّا يصنع الستائر والأغطية المخرمة للفنادق، المكاتب، إلخ.. من الواضح أنه كان يستطيع إقناع الجميع بشراء منتجاته، يبدو كثير الشبه ببل كلنتون على هذا الصعيد، إذ يقال: إن بل قادر على إغراء الطيور واجتذابها من الشجر. من المؤكد أن بل عرف كيف يسحر هيلاري التي وقفت معه بالرغم من سلوكه المشين، تمامًا كما كانت أمها قد وقفت مع أبيها، بصرف النظر عن مدى إذلاله لها في المعاملة.

تابعت هيلاري كلامها قائلة: كان يوظف قروشه بالحكمة التي تليق بأي بخيل. حين كنت في الثالثة من العمر اشترى بيتًا جورجيًّا زائفًا في باين ريدج بمبلغ 35000 دولار، دفع الثمن نقدًا لأنه لم يكن يؤمن بالاقتراض، لتوفير الفائدة التي كان سيتعين عليه دفعها بحسب أقوى الاحتمالات. لم يملك أي بطاقة اعتماد قط، ربما للسبب نفسه، عادة يعود إلى البيت بين الثالثة والرابعة

بعد الظهر، ويستلقي على الأريكة مادًّا ساقه المعطوبة أمامه. كان يمضي وقته متابعًا التلفاز، محتسيًّا البيرة، ومطلقًا قسطه اليومي الرتيب من الصرخات الموجهة إلى أولاده.

تواصل كلنتون: من خلال عائلته تمكن أبي من أن يبقى القائد، وإن لم يعد ضابط صف في البحرية. بدلًا من دفع المال لمهنيين متخصصين بصيانة البيت، كان يوفره بتكليفنا بالمهمة العظيمة حتى صار البيت خرابًا بحسب تعبير صاحبة المكتب العقاري التي تولت إعادة بيعه لاحقًا. لم يكن يدفع لنا مقابل المساعدة بالتأكيد، كان يقول: ألا تأكلون؟! ذلك يكفي.

أظن أنه لا يجوز لنا أن نبالغ في لوم هيو رودهام على بخله، فكرت. مثل الأطفال الآخرين الذين تربوا إبان أزمة الكساد الكبرى، كان قد رأى كثيرين أصبحوا بلا مأوى أو على حافة الجوع، فكان دائم الخوف من أن يلتحق هو والعائلة بركب أولئك، فكان شعاره الأكثر تكرارًا هو: «هل تريدوننا أن نؤول إلى مأوى الفقراء؟» ظل دائم التذكير لأولاده بأنهم متفوقون في أشياء كثيرة على أبناء جيله هو، بقي يردد على مسامعهم: «لن تعرفوا أبدًا، كم أنتم محظوظون!»، عبارة سمعتها هيلاري مرات أكثر من أن ترغب في عدها.

إذا تجرأت على مطالبة أبي بمصروف جيب إضافي، أو سلفة على مخصصي الزهيد، كنت أحصل على محاضرة أن المال لا ينمو على الشجر، فأسارع إلى التوقف عن المطالبة.

قالت: أبي كان عقائديًّا متشددًا، بعبارة ملطفة؛ وفي المناقشات النشيطة بل الحامية أحيانًا في عائلتنا حول مائدة المطبخ عن السياسة أو الرياضة عادة، تعلمت أن أكثر من رأي يمكن أن تتعايش تحت سقف واحد. ومع بلوغي الثانية عشرة من العمر كانت لي مواقفي الخاصة من قضاياي، كما تعلمت أن أي شخص لم يكن سيئًا بالضرورة لا لشيء إلا لأنك لم تتفق معه، وأن امتلاكك

لإيمـان قـوي بأمر ما يجعل من الأفضل لك أن تبقى مسـتعدًّا للدفاع عن إيمانك هذا. ذلك ساعدني كثيرًا بوصفي زوجَ سياسي كما بوصفي سياسية.

مـن المؤكـد أن إحساسـها بالمـال كان متأثرًا بقلـق أبيها دائـم الحضور، وقد سـمعت أن هيـلاري مغلولـة اليد أيضًـا. كتبت مورين داود، إحـدى كبار معلقات النيويورك تايمز تقول: إن آل كلنتون مشهورون بخلط أمور المال، فيبدون شرهين في الأثناء. إذا كان هذا صحيحًا عن هيلاري، فإنه قابل للفهم. عانت كثيرًا بخل أبيهـا وقلقه الاقتصادي الدائم. لا شـك أن تمكنها مـن مراكمة كمية كبيرة من المال في مؤسسـة حقوقية، بوصفها عضو مجلس شيوخ، وشاغلة منصب قومي، ولا سيما عبر كتبها، شكل بالضرورة عامل ارتياح عظيم بالنسبة إليها.

شـفة هيلاري السـفلى برزت إلى الأمام مع انكماش الشفة العليا وانسحابها إلـى الخلـف، مؤكـدة صـواب مشـاعري حـول علاقتهـا بالمـال. قالـت: كان أبي اسـتثنائي البخـل بالنسـبة إلـى الملابس، نـادرًا مـا كان يُسـمح لنا بأن نشـتري ملابس جديدة حتى تكون القديمة قد اهترأت أو صارت أصغر من أجسادنا. ما أكثر ما كنا نبدو أشبه بالأيتام أو الأطفال المشردين.

لم تكـن دوروثـي؛ أم هيـلاري، تهتم بما ترتديـه، ذلك كان أمـرًا جيدًا، أقله بالنسبة إلى الزواج؛ لأنها كانت ملزمة به. ولم يكن هيو يرى في ملابس الفتيات سوى وسائل لتغطية عريهن.

لا غرابة أن هيلاري كانت ترتدي أطقمًا سروالية غير مناسبة قبل أن تصبح سيدة أولى! فكرت بسخط، لم تتعلم قط كيف تلبس ملابس مناسبة في سن كان يجري فيها تلقين الفتيات جميعهن مثل هذه المهارات.

قالـت هيـلاري بأسـى، كمـا لـو كانـت تريـد اسـتهداف أفكاري: الفتيـات الأخريـات في المدرسـة الثانويـة جميعهن كـن مجنونات ملابـس، وكان أبي يرى أن ذلـك أمـر تافـه لا يجوز إنفاق المـال عليه، وأجبرني على ارتداء ملابـس غير

جذابة. أمي لم تكن قادرة على المساعدة، حين كنت أشكو لها قائلة إن الفتيات الأخريات جميعهن أفضل مني ملبسًا، كانت تقول إنها لا تقيم أي وزن لما ترتديه الفتيات الأخريات، كانت تقول لي: أنت فريدة ولست بحاجة إلى أن تفعلي ما يفعله الآخرون! يمكنك أن تكوني مستقلة بتفكيرك، غير أني لم أردَّ عليها مؤكدة رغبتي في ارتداء ملابس أنيقة بالرغم من استقلالي بتفكيري. لم يكن من شأن ذلك أن يجدي. وهل كانت تلك النقطة المضيئة التي رصدتها في عين هيلاري دمعة؟

استأنفت الكلام قائلة: وحين حل موعد الحفلة الراقصة في الثانوية، دفعني أبي إلى شراء أرخص الأثواب في المتجر؛ باستثنائي بدت الفتيات الأخريات جميعًا كما لو كن عارضات أزياء، أحيانًا يخطر لي أن رُخصه أفسد أنوثتي، وأدى إلى جعل تعاملي المريح مع الشباب صعبًا. تدريجيًّا، ما لبث بخله ونقده المتمادي أن تمخضا عما يشبه القطيعة الكاملة في علاقتنا.

ومن سيلومها؟! فكرت. استغرابي الوحيد أن الأمر لم يحصل في مرحلة أبكر من حياتها.

امتد الانقطاع إلى ما بعد أسلوبي في الملبس، بتنا مختلفين حول أبسط الأمور؛ السياسة، الحرب في فيتنام، أو الحركة النسوية، وازداد عناده وعدم تسامحه مع آرائي. غير أنها بوصفها هيلاري إياها، شعرت بضرورة إضافة: ولكنني كنت أعرف دائمًا أنه كان يحبني، وإن اختلفنا حول كل شيء.

بيتهم كان صغيرًا، بيت من الطوب بطبقتين مدهون بألوان باهتة محاط بأشجار القيقب والدردار. كثيرون من جيران عائلة رودهام كانوا قد نزحوا من شيكاغو هربًا من تدفق الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية الآتين من الجنوب. كان رودهام يحتقر الزنوج، ويستخدم أحط التعابير في وصفهم.

obeikandi.com

لا غرابـة، لم يكـن ثمـة أي يهـود، أو زنوج، أو آسـيويين في بـارك ريدج قريبًا من بيته المفضل. مين الشرقية، حيث تابعت هيلاري تعليمها الثانوي حتى أنهت الصـف الحادي عشـر، كانـت في ذلك الوقت تؤوي العـدد الأكبر من القوقازيين مقارنة بأي ثانوية في البلاد. من الجدير بالإطراء أنها، بالرغم من تأثير أبيها، لم تكـن منحـازة عنصريًّـا – بعيـدة عن ذلـك في الواقع،واسـتنادًا إلى جهودها الرامية إلى مسـاعدة نسـاء الأعراق والأجناس جميعها في طول العالم وعرضه، أعتقـد أنهـا بريئة كليًّا من الانحياز، بالرغم مـن بعض القصص المناقضة التي انتشرت أيام حملتها الرئاسية عام 2008م.

كانت بارك ريدج ضاحية ذات نمط مختلف تمامًا عن نمط تلك الشيكاغوية الواقعـة علـى الشـاطئ الشـمالي الإقصائـي؛ كانـت البيـوت أجـدد، شـيدت في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته، ومن دون الاستعراضات المميزة للأحياء السـكنية الأكـثر حصريـة. أمـا الثمـن الـذي دفعه رودهـام مقابل بيتـه فكان– بالتأكيد– أقل بكثير من كلفة بيوت الوجاهة على الشاطئ الشمالي. ومع متابعة هيلاري كلامها الرتيب عن بيوت الحي، كتمتُ تثاؤبي؛ لم تكن الأسهل دائمًا من حيث الاستماع إليها.

كان أبـي يعـد نفسـه جمهوريًّا، حـاول فرض قناعاتـه السياسـية علينا عنوة (تابعت هيلاري). في عام 1952م أرغمنا على متابعة المؤتمر القومي الجمهوري علـى التلفـاز، وأبى السـماح لنا بمتابعـة المؤتمر الديمقراطي. غـير أني ضمنت زيارة صديقة حين علمت بموعد عرض الديمقراطيين.

لا غرابة على الإطلاق.

قال بل كلنتون إن حماه لم يتخلَّ، حتى بعد أن أصبح صهره رئيسًا للجمهورية، عن الأمل في أن ينقلب هذا الصهر، جمهوريًّا، ويقدم على إلغاء ضريبة الأرباح على الرساميل كليًّا.

Obeikandl.com

أنا لست خبيرة في السياسة، غير أن بقاء رودهام حالمًا باحتمال انقلاب صهره بل كلنتون؛ رئيس جمهورية الولايات المتحدة، وقلب الحزب الديمقراطي، على ولائه الحزبي وصولاً إلى تلك المحطة التي يصبح فيها جمهوريًّا، من شأنه ألا يكون معقولاً. إلى أي حد يمكن للإنسان أن يكون منفصلاً عن الواقع، لا واقعيًّا؟

بأكثر النبرات فتورًا قالت لي هيلاري: مات أبي في السابع من نيسان/أبريل 1993م في الثانية والثمانين من العمر. فقط البريق في عينيها أشار إلى انطواء تصريحها على أي معنى خاص بالنسبة إليها. تابعت: رغم تعامله مع العائلة، حزنت عليه كثيرًا، وبالفعل فإن موته ألزمني حتى بأخذ إجازة عامة فيما كنت عاكفة على الانشغال بفريق عملي الخاص بالرعاية الصحية.

قدرت أنها حزنت عليه حتمًا أكثر مما عرفت، وظننت أنها كانت تتحدث عنه حين كتبت لاحقًا: «لكل منا خياره، أعتقد أن واحدًا من التحديات الكبرى التي نواجهها في الحياة اليومية، هو أسلوب التعامل مع الخيبات والإحباطات الخاصة، وما إذا كان المرء قادرًا على العفو عن الألم الذي تسبب به لآخرين، وبصراحة الاعتراف بالألم الذي يكون المرء قد سببه لآخرين. أصلي كل يوم راجية، كما تقول الوصية الإنجيلية، تعلم مسامحة أعدائي».

ألقى رئيس الجمهورية كلنتون كلمة التأبين في جنازة هيو رودهام. هل أثارت الكلمة إعجاب هيلاري؟ هل كانت راضية؟ هل رأت أنه كان قادرًا على أن يتصرف بطريقة أفضل؟ لن أعرف أبدًا. لم تبح بشيء.

بدلاً من ذلك، قفزت واقفة وقالت: عليَّ أن أغادر الآن.

أراهن أن عليك أن تفعلي، فكرت. فلتتدخل السماء نفسها لمنعك من الانهيار باكية!

obeikandi.com